الحلم والتحلم ...

للأستاذ محمود عزت عرفة

— ٤ —

« إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، ومن يتحر الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه » حديث شريف

دواع إلى التحلم :

تدعو إلى التحلم عوارض كثيرة ، وأمور متعددة ، لأن التكلف كيفما كان خروج على الطبيعة ، وتحويل للغريزة ؛ وشيء من ذلك لا يكون أبداً وحده ، ولا يتم مجرداً عن العلل خارجاً على البواعث والأسباب .

فما يدعو النفس إلى التحلم ويطوّعه لها أن تستشعر القدرة على الانتصار فيفثأ ذلك من حر غضبها ، ويبدلها بقلقها هدوءاً ، وبجزعها تثبتاً واطمئناناً وحينئذ تنتفي بواعث الانتقام ، فيكون التحلم الذي يتطاول مع الزمن حتى يصير حلماً ، وأكثر ما يكون عفو الملوك لمثل هذا الباعث ، وقد مرت بنا أمثلة منه مختلفات . ويكاد يضع يدنا على هـذه الحقيقة وضعاً قول المنصور لجعفر الصادق بعد عفوه عن أهل المدينة : إنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من الإساءة إليهم(١) .

ومن كلام بعض الحكماء : ليس الحليم من ظُلم فحلم ، حتى إذا قدر انتقم ؛ ولكن الحليم من ظُلم فحلم ؛ حتى إذا قدر عفا .

ويقول عبد الله بن مسعود : انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه ، وأمانته عند طمعه . وما علمك بحلمه إذا لم يغضب ؟ وما علمك بأمانته إذا لم يطمع ؟

وقد نصح معاوية لابنه يزيد فقال : عليك بالحلم والاحتمال حتى تمكنك الفرصة ؛ فإن أمكنتك فعليك بالصفح ، فإنه يدفع عنك معضلات الأمور ، ويوقيك مصارع المحذور ... ولعل هذا الخلق الكريم — العفو عند القدرة — يعد أشرف مواقف

(١) انظر الحوار بتمامه في الحلقة الثانية من هذا البحث .

الرؤساء ، وأدلها على أصالة النبل في نفوسهم ، واستحواذ الكرم والفضيلة على طباعهم .

ومن البواعث على التحلم أيضاً ما يكون من الاستهانة بالمسيء أو استضعاف شأنه ، حتى لكأنه المعنيّ بمثل قول « مسلم » :

فاذهب فأنت طليق عرضك إنه ... عرض عززت به وأنت ذليل

وبمثل قول الآخر :

نجا بك عرضُك منجى الذباب (م) حمته مقاذيره أن يُنالا !

ولقد عفا مصعب بن الزبير — لمثل هذا الباعث — عن قاتل أبيه(١) . فقد روى أنه لما ولي العراق جلس يوماً لعطاء الجند ، وأمر مناديه فنادى : أين عمرو بن جرموز ؟ — وهو الذي قتل أباه الزبير — فقيل له : أيها الأمير ، إنه قد تباعد في الأرض . فقال : أويظن الجاهل أني أقيده بأبي عبد الله ؟ فليظهر آمناً ليأخذ عطاءه موفوراً ... !

وقال عمر بن الخطاب لأبي مريم السلولي قاتل أخيه زيد بن الخطاب — وكان قد كفّه عنه دينُه وورعه وعدالته — : والله إني لا أحبك حتى تحب الأرض الدم ! قال : أفيمنعني ذلك حقاً ؟ قال : لا . قال : فلا ضير ، إنما يأسى على الحب النساء !

ولقد يدعو إلى التحلم فرط السآمة من الانتقام ، ورغبة النفس عن التشفي لطول ما بلغت من ذلك حظها ، والشيء إذا زاد عن حده مال إلى ضده ، وللنفوس ثورة تجنح معها إلى السكون ، ومؤاخذة تميل بعدها إلى المتاركة ، ويبدو ذلك المظهر واضحاً فيما يسجله التاريخ من عفو المنصور بعد حروبه مع العلويين ، وتسامح المأمون بعد حوادث الفتنة بينه وبين أخيه الأمين . ولما انتهت فتنة ابن الأشعث أُتي عبد الملك بن مروان بأسارى موقعة دير الجماجم(٢) ؛ — وكانوا ممن خان عهده ونقضوا بيعته وقاتلوا جنده قتالاً عنيفاً — فقال لرجاء بن حيوه : ما ترى ؟ قال : إن

(١) اشترك الزبير في موقعة الجمل كما هو معلوم ، ثم اقتنع بخطئه في مخاصمة علي فنفض يده من الأمر وقفل راجعاً إلى المدينة — عام ٣٦ هـ — فلما كان بوادي السباع نزل فنام ، فجاء عمرو بن جرموز فقتله

(٢) حدثت قرب الكوفة عام ٨٢ هـ وفر بعدها عبد الرحمن ابن الأشعث إلى فارس فآواه إليه رتبيل ملك الترك ، وكاتبه الحجاج وتوعده إن لم يرسل إليه ابن الأشعث فقتل عبد الرحمن نفسه بأن تردى من أعلى القصر ، وحمل رأسه إلى الحجاج عام ٨٥ هـ .

الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظفر ، فاعط الله ما يحب من العفو ! فلم يكن بأسرع من أن فك قيودهم وعفا عنهم .

ونحن لا نكاد نفهم عفواً يصدر عن الحجاج — أظمأ ولاة المسلمين إلى الدماء — إلا على هذا الوجه ، ولمثل ذلك الباعث . فهو قد أبلى فى قتال ابن الأشعث أعظم البلاء ، وذاق أمام قواته مرارة الهزيمة وحلاوة الانتصار ، حتى قهره فى موقعة دير الجماجم فلما عرض الأسرى من رجاله على السيف مثل أمامه الشعبى[1] فى جملتهم . فقال : أصلح الله الأمير ، نبا بنا المنزل ، وأجدب الجناب ، واستحلسنا الخوف ، واكتحلنا السهر ، وضاق المسلك ، وخبطتنا فتنة لم تكن فيها برزة أتقياء ، ولا فجرة أقوياء . قال الحجاج : صدقت ، والله ما برزتم بخروجكم علينا ولا قويتم ... خلوا سبيل الشيخ !

وكان قوم يتحلمون على السفهاء إذا اعترضوهم بالأذى ، بل ربما تعرضوا إليهم عامدين طلباً لاكتساب الحلم وتدرباً عليه ، وقهراً للنفس على السكون ، وتعويداً لها على المسامحة . رُوى أن جعفر بن محمد الصادق كان إذا أذنب له عبد أعتقه . فقيل له فى ذلك فقال : إنى أريد بفعلى هذا تعلم الحلم ! ومن كلام الأحنف ابن قيس وكان من أحلم الناس : لست بحليم ولكنى أتحلم[2] !

ويقول أبو عثمان الجاحظ فى بيانه وتبيينه : « كانوا يأمرون بالتحلم والتعلم ، وبالتقدم فى ذلك أشد التقدم » ، وحجة القائلين بهذا أن تكلف الفضيلة عند فقدها فضيلة . نعم ، يفرق الصوفية — فى المعنى وفى الدرجة — بين حالتى الوجد والتواجد مثلا ، ولكنهم لا ينكرون المقام الأخير متى قُصد به التوسل إلى بلوغ الأول وتحصيله ، والأصل عند الجميع فى هذا ما يروى عن الرسول عليه الصلوات من قوله : إن لم تبكوا فتباكوا !

هذا وقد تحمل الشفقة على المسىء والرحمة له إلى مقابلته بالحلم ، إذا ما تقرر فى الذهن أن الإساءة لا تعدو أن تكون تصرفاً مريضاً مبعثه الجهل ، وأن صاحبه أولى بالعلاج منه بالعقوبة ، وهذا باعث كريم على التحلم لا يتسامى إليه من النفوس إلا أكرمها عنصراً وأزكاها جوهراً .

ولقد عوتب كسرى أنوشروان مرة على ترك عقوبة المذنبين فقال : هم المرضى ونحن الأطباء ، فإذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم ؟ وقال إبراهيم التيمى : إن الرجل ليظلمنى فأرحمه ! قال الغزالى : « وهذا إحسان وراء العفو ، لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم ، وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب » .

وحكى الفضيل بن عياض قال : ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان ، جلس إلىّ فى المسجد الحرام ثم قام ليطوف ، فسرقت دنانير كانت معه . فجعل يبكى . فقلت : أعلى الدنانير تبكى ؟ فقال لا ، ولكن مثلتنى وإياه بين يدى الله عز وجل ، فأشرف عقلى على إدحاض حجته ، فبكائى رحمة له !

وقد يحلمون — فى غير موضع الحلم — تجانفاً عن شبهة قد تعرض فى القصاص وإن كان عدلا ، والتماساً لرتبة من الخلق أسمى من هذا العدل ، وأبعد مما يتلبس به من تلك الشبهة . قال عمر بن عبد العزيز لرجل غلط غلطاً اشتد له غضبه : لولا أنك أغضبتنى لعاقبتك . وإنه فى هذا ليأتسى بجده ابن الخطاب ، وقد أشرنا — فيما سبق — إلى كفه عن السكران الذى شتمه ، وقوله : إنه أغضبنى ، ولو عزرته لكان ذلك لنفسى لنفسى ...

وربما يكون التحلم وسيلة لتحقيق غاية بعيدة ، خفية أو ظاهرة ؛ من تطييب نفس ، أو رب صنيعة ، أو إتمام سالف جميل ، أو مراعاة قديم حرمة ، أو تمهيد لاستمالة وتكليف ؛ وكان أصحاب الجنايات من الولاة والوزراء والعمال يدركون هذا الباعث ، ويعملون على إثارته فى نفوس الخلفاء إذا هم تعرضوا لسخطهم وصاروا موضع نقمتهم .

ولى معاوية روحَ بن زنباع ثم عتب عليه فى جناية فكتب إليه بالقدوم . ولما قدم أمر بضربه بالسياط ، فلما أقيم ليضرب قال : نشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تهدم منى ركناً أنت بنيته ، أو أن تضع منى خسيسة أنت رفعتها ، أو تشمت بى عدواً أنت وقته . وأسألك بالله إلا أتى حلمك وعفوك دون إفساد صنائعك . فقال معاوية : إذا الله سنّى عقد أمر تيسر ... خلوا سبيله .

ومن العفو لمثل هذا الباعث عفو الأمين عن الحسين بن على

---

(١) أبو عمرو عامر بن شراحيل ، كوفى تابعى عالم جليل توفى سنة ١٠٥ هـ .

(٢) يشبه هذا قول طلحة بن عبيد الله — وكان من الأجواد — : إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء ، ولكنا نصبر !